الشعراء/ الفرسان

أنزل الإسلام الشعراء/ الملوك من عروشهم، فوجدوا أنفسهم أمام أوضاع جديدة لم يألفوها. أصبح القرآن الكريم والسنة النبوية، لا الشعر، مصدري الحكمة، وأصبح على الشاعر الذي يصبو إلى لقب الحكيم أن يستمد مادته من المنبع الإسلامي. أصبحت الأمة، لا القبيلة، مركز الثقل، وتحول الشعراء الذين يؤججون النزعات القبلية إلى مصدر إزعاج للأمة الوليدة. ظهر على الأفق منافسون أقوياء للشعراء: الفقهاء والقادة العسكريون والكتّاب واللغويون، وهؤلاء الأخيرون نغّصوا حياة الشعراء أكثر من أي منافس آخر. إلا أن التغيير الأهم والأكثر خطورة كان انتهاء المرحلة الشفوية وبداية حقبة التدوين. عندما كان الحفظ الوسيلة الوحيدة لنقل المعارف كان الشاعر سيد الحلبة. عندما جاء زمان الكلمة المكتوبة لم يعد ملك الكلمة المسموعة ملك الكلمة المدوّنة. إلاّ أن الشعراء كانوا، وأحسبهم لا يزالون، مخلوقات قادرة على التأقلم، وتأقلموا مع الواقع الجديد.

كان التأقلم، في بدايته، صعباً ومؤلماً بعض الشيء. كانت الخلافة الراشدة شديدة الوطأة على الشعراء. وجد الحطيئة نفسه في السجن عندما أطلق لسانه الطويل - والذي كان كما

يزعم الرواة طويلاً حقيقة ومجازاً! - في أعراض الناس كما كان يفعل في الجاهلية. ووجد شاعر آخر نفسه معزولاً من إمارته بعد أن تبجح في شعره بممارسات أغضبت الخليفة الثاني. ولم يكن الخليفة الرابع، وقد كان هو نفسه شاعراً، يرى للشعراء أي حق في بيت المال.

إلاّ أن الشعراء/ الفرسان استعادوا بعض أمجادهم الغابرة مع بزوغ الدولة الأموية. عادت التحزبات القبلية، ورفع الشعراء، من جديد، أعلام القبيلة. كان الخلفاء الأمويون يدركون أهمية الشعر في بناء الدولة العربية/ القبلية الجديدة التي أقاموها، واستعانوا بكتيبة ضخمة من الشعراء/ الفرسان، كان أقربهم إلى قلوب الخلفاء وأكثرهم فاعلية الشاعر المسيحي الأخطل.

تعامل خلفاء بني أميّة مع الشعراء/ الفرسان بكثير من السخاء ورحابة الصدر وقدر لا يستهان به من الاحترام. كان بوسع شاعر أن يقول للخليفة:

أيشتمني معاوية بن حربٍ
وسيفي صارمٌ ومعي لساني؟

فلا يحدث شيء سوى أن يسترضيه أمير المؤمنين. وكان بوسع شاعر آخر أن يتغزل بابنة الخليفة فلا يفعل شيئاً سوى تهدئة ابنه يزيد الذي همَّ أن يبطش بالشاعر. وكانت جرأة الأخطل مع الخلفاء الأمويين لا تعرف الحدود. في قصيدته

الحائية الشهيرة يقف الشاعر النصراني أمام أمير المؤمنين هازئاً بشعائر الإسلام، ويخرج بعطيّة الخليفة. بل إن الأخطل كان لا يني يذكّر خلفاء بني أميّة بأنه أعطاهم أكثر مما أخذ منهم:

أبني أميــــة ! إن أخـــذت نوالكمْ
فلمـا أخـــذتم من مـديحي أكــثـرُ
أبني أُمــيّـــة ! لي مـــدائح فـــيكمُ
تُنســون إن طال الزمــان.. وتُذكــرُ

التحق عدد من الشعراء/ الفرسان بخدمة الدولة، وعاداها عدد آخر بكل شراسة. وإذا كانت قصائد الموالين قد جلبت لأصحابها الثراء والحظوة، فإن قصائد المعارضين جلبت لقائليها الكثير من الإعجاب الذي لا يزال صداه يتردد عبر التاريخ. وفي هذا المجال، المعارضة السياسية، أبلى شعراء الخوارج في الشعر بلاءً رائعاً يعادل بلاءهم في القتال. لا يزال شعر قطري بن الفجاءة، على سبيل المثال، محفوراً في الذاكرة العربية:

أقـول لهـا وقـد طارت شـعـاعـاً
مـن الأبـطـال.. ويـحـك لا تُـراعـي
فـــإنك لو ســألت بقـــاء يومٍ
عـن الأجـل الـذي لـك.. لـم تُـطـاعـي

إلاّ أن ولاء الشعراء/ الفرسان لم يكن مضموناً، سواء في الموالاة أو في المعارضة. وخير مثال لهذا الولاء المتذبذب الفرزدق

الذي كان بوسعه، كما قالت عبارته الشهيرة، أن يضع سيفه - لسانه في هذه الحالة - مع رجل وقلبه مع رجل آخر. عندما تساءل أحد الخلفاء الأمويين مستخفّاً وقد رأى علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يطوف بالبيت: «من هذا؟» جاء الرد عنيفاً عفوياً من الفرزدق:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفُه والحِلّ والحرمُ
وليس قولك من هذا بضائره
العُرْبُ تعرفُ من أنكرت والعجمُ

لم يحظ أي خليفة أموي، على الرغم من العطاء السخي، بمديح جميل مؤثر كهذا المديح الذي انفجر، كالبركان، لا نتيجة طمع ولكن عن فروسية حقيقية. وجرير، على الرغم من ولائه الأموي المعروف، ينسى في لحظة من لحظات الفروسية متطلبات «التسلسل الإداري» فيجعل من «ابن عمه» الخليفة في دمشق مجرد جندي يسوق إلى جرير أعداءه سوقاً حين يصدر أمر الشاعر بذلك. وأغرب من فروسية جرير هذه رد فعل «ابن عمه» الخليفة الذي أبدى استعداده لتنفيذ الطلب لو أن الشاعر قال: «لو شاء» بدلاً من «لو شئت»!

وعندما وجد الشعراء/ الفرسان أنفسهم بلا معارك تستنفد طاقاتهم كلها انقض الواحد منهم على الآخر يهجوه هجاء مريرا.

كانت هذه المرحلة مرحلة «النقائض»، ملاحم الهجاء الشهيرة التي لم يشهد لها تاريخ الأدب مثيلاً. ورغم أن المعارك كانت تضم، أحياناً، عشرات الشعراء، كان جرير فيما يروى «ينهشه» ثمانون شاعراً!، إلا أن قصب السبق كان معقوداً للفرسان الثلاثة الفرزدق وجرير والأخطل. ورغم ما انحدرت إليه النقائض من فحش في بعض الأبيات، إلاّ أنه كان هناك، دوماً، جو «دون كيشوتي» من الفروسية يحيط بها. حقيقة الأمر أن الشعراء الثلاثة الكبار كانوا يكنّون، الواحد للآخر، الكثير من الحب والتقدير الذي لم تنجح كل الشتائم الشعرية في إخفائه.

بوسعنا أن نقول، إذن، إن الزعم الذي روّج له بعض المستشرقين من أن الشعر فقد أهميّته تماماً مع ظهور الإسلام زعم يعوزه الكثير من الدقة. كانت مرحلة الخلافة الراشدة والدولة الأموية التي ورثتها مليئة بالأحداث الكبرى: مولد الدين الجديد، والردّة، والفتوحات العظيمة، والخلافات الداخلية الدامية، وظل الشعر يتجاوب مع الأحداث، وظلت النفس العربية تتجاوب مع الشعر. كان بوسع بيت واحد من الشعر أن يعبر الصحاري الشاسعة بسرعة تكاد تعادل سرعة الفاكس في أيامنا هذه . أدّى بيت جرير الشهير إلى شطب اسم نمير من سلسلة نسب القبيلة المهجوة. وكان الشعر قادراً على إيقاظ كل القوى القبلية الغريزية التي حاول الإسلام القضاء عليها. كانت

النقائض، وهي في مجملها مباريات قبلية لا شخصية، تستهوي جمهوراً كبيراً من الناس كجمهور كرة القدم هذه الأيام. ولنا أن نتذكر أن أبياتاً معدودة من شاعر عادي أدت إلى مذبحة الأمويين المرعبة خلال وليمة الخليفة العباسي الدموية.

إلاّ أن النفس العربية فُتنت، كلية، بنوع آخر من الشعراء/ الفرسان، شعراء الحب العذري. مع هؤلاء الشعراء دخل اللغة مفهوم جديد للحب، مفهوم يكاد يفصله نهائياً عن الجنس، ولم يخرج منها حتى الآن. يصف جميل علاقة لم يكن بوسع امرئ القيس أن يتخيلها:

تعلّق روحي روحها قبل خلقنا
ومن بعد أن كنا نطافاً.. وفي المهدِ

ويمضي بهذه العلاقة الغريبة إلى نهايتها المحتومة:

ألا ليتنا نحيا جميعاً فإن نُمتْ
يجاور في الموتى ضريحي ضريحها

ويقدم لنا كُثيّر هذه الصورة النادرة المؤثرة للحبيبة الخجول:

تنيلُ قليلاً في تناء وهجرة
كما مسّ ظهر الحية المتخوّفُ

لو أدرك فرويد هذا البيت لرأى فيه أجمل تصوير للصراع المحتدم بين رغبات العقل الباطن وبين القيم والتقاليد.

كان قيس بن الملوّح، الشاعر المجنون، أشهر الفرسان العشاق. ألهمت قصة حبه المأساوية عشرات الأعمال الأدبية في عدد من اللغات، ولا تزال. تحوّلت ليلى في الذاكرة العربية الجماعية إلى رمز يمثل الحب والأنوثة والجمال، وتحول قيس إلى رمز العفاف والتضحية والعشق الخالد. لا يوجد عاشق عربي واحد لم يردد مع قيس بلسان الحال قوله:

قضاها لغيري.. وابتلاني بحبها
فهلاّ بشيء غير ليلى ابتلانيا؟

أو قوله:

يقولون ليلى في العراق مريضة
ألا ليتني كنت الطبيب المداويا

أو تساؤله الفاجع:

بربّك هل ضممت إليك ليلى
قبيل الصبح.. أو قبَّلت فاها؟
وهل رفّت عليك قرون ليلى
رفيف الأقحوانة في نداها؟

عاد المجنون إلى الحياة في القرن العشرين بلسان شوقي، كما عاد زميله قيس بن ذريح بلسان عزيز أباظة، في عملَيْن من أجمل الأعمال الشعرية التي شهدها القرن.

obeikandl.com

ولا بدّ هنا أن أتوقف لأقول إن الشعراء العذريين أدخلوا في الشعر العربي تجديداً لا يستهان به: تخصيص قصيدة من أولها إلى آخرها لموضوع الحب. كان «النسيب» قبل ظهور الشعراء العذريين، ورجع بعد اختفائهم، مجرد مقدّمة يعقبها «حسن التخلّص» للمديح. قرأت، مرة، رأياً عجيباً لناقد عربي ذهب فيه إلى أن قصيدة «صلوات في هيكل الحب» للشابي هي أول قصيدة عربية تخصص كلها للحديث عن الحب. لا بدّ أن هذا الناقد مرّ على قصائد العذريين مرور الكرام، أو لعله لم يمر بها على الإطلاق. لو توقف لديها لتبين له أن القصائد العذرية كانت بأكملها عن الحب. لم يشهد الشعر العربي، في رأيي، قصائد حب أرق أو أجمل أو أصدق من قصائد الشعراء/ الفرسان/ العشاق.

obeikandl.com